لا يمين ولا يسار

(١)

الأخ عبد الله اكديرة

١) التصور الإسلاميّ للحياة :

الحياة .. ! هل جاءت نظريات الأولين بما يفسرها ؟ وهل ستأتي علوم الآخرين بما يجلو إبهامها ويحل لغزها ؟

لم يدرك لها أحد معنى ، و لم يحدد لها بشرٌ مدى . الله جلَّ جلاله ، الخالق البارئ المصور هو الذي برأها ويعلـــم بَدْأها ومنتهاها ، ويدرك سرّها المكنون الذي حارت أمامه عقول البشر ، وقصرت أخيلتهم –رغم أنها قـــد تـــنجح أحياناً– عن أن تحلّق في أجواز فضائها السامية العالية ، إلاّ بإلهام ووحي منه سبحانه تقدّست أسماؤه وتعددت نعمـــه وآلاؤه .

الحياة .. ! منه مصدرها وإليه مصيرها ، وهي بين هذا وذاك رهينة بما يشاء لها وما يقدّره ويقضي في شـــأنها ، لا تحيد عنه قيد أنملة ، وإلاّ مسَّها الضرّ وعمّها البلاء وشاع فيها الخراب .. وقد يدركها الفناء

الحياة وحدة .. من وحدة الله تخضع للنواميس الأزلية التي خطّها لها ، فإن زاغت عنها ضلّت وأضلّت والتوت بها السبب وعميت عليها المسالك وأصابها الخبال ونزل بساحتها الوَبال .

الحياة .. ! في جميع وجوهها وعلى مختلف أنواعها ، ومهما تباينت وتعددت مستوياتها وحدة .. من وحدة الله ، قد تقبل التجزأ وقد تخضع للتجزيء ظاهرياً ، ولكنها تظل هي الحياة ، السر الخفي الذي عجزت عن اكتناهه أقـــوى العقول ، ووقفت عند أعتاب قدسِ أقداسه تسبح باسم بارئها خاشعةً خاضعة ، وإن جرّها الضلال إلى الجحود كانت كناطح الصخور .

الحياة وحدة .. من وحدة الله الحي .. قد تتجزأ ، ولكن أجزاءها مهما دقت وصغرت تظل عناصـــر الوحـــدة والاتحاد قائمة فيها وبينها ، ولا عجب ، فهي من صنع الله ومكان من صنع الواحد الأحد انعدم فيه الخلاف وانتفـــى منه الصراع ، وإن بدا لذوي البصر الكليل والبصيرة العمياء عكس ذلك .

هكذا يرى المؤمن الحياة .. يوجهه كتاب ربه وتهديه سنة نبيّه وتلهمه الفطرة السوية التي فطره الله عليها .

الحياة وحدة .. من وحدة الله القادر المريد .. لماذا ؟

إذا تخلينا عن الأسلوب الغربي في البحث والنظر ، يكون الجواب كالآتي :

إنها الحقيقة الكونية التي تقدم مفهوماً واضحاً سليماً وطريقةً قويمة للبحث المعملي في الخلية الحيــة ، ولتكــوين الموقف التصوري الأمثل للكون ، إنها النظام والمنهج الذي به وعلى أساس ما يقتضيه ننظر إلى الحياة النظرة التي تسْبر الأغوار وتستكْنه الأسرار ، دون أن نتعدى حدود الله فنظلم أنفسنا .. بها نكوّن الموقف التصوري السليم لأنفــسنا ومجتمعاتنا والكون الواسع البديع المذهل الذي كُتب علينا أن نحيا في أقطاره .. بها تتهيأ لــدينا الوســائل والأدوات العملية القويمة التي نبحث بها مادة الحياة ومكوناتها وعناصرها ، ونلمس خيط الوحدة الشامل الدقيق الخفــي الــذي يسري فيها لطيفاً فعالاً ، فتنعقد الصلة الصحيحة بين الحياة والأحياء وبين رب الحياة والأحيــاء .. صــلة العبوديــة الخالصة الخاضعة الطائعة

إنها النظرية التي تجعلنا نقف الموقف السوي الأمثل حين الفشل في استكْناه أسرار الحياة ، فلا نتمرّد ولا نثور ولا نتحفز للصراع –ببطولة دون كيشوتية– ضد قوى الغيْب الخفية التي نجهلها –إن لم نعتمد على ما أخبرنا به الله عنها على لسان رسله وأنبيائه– كما يفعل إنسان الغرب التعس الآن ، بل نعرف عن يقين أن فشلنا ناتج عن أن إرســاءنا لقواعد الحلول المثلى للمعضلات التي تواجهنا لم يحالفنا فيه التوفيق ، فنعيد النظر في أدواتنا وفي أساليب الرؤية القويمة عندنا ، فنجدد ما يحتاج إلى التجديد ، وننفي ما يحتاج إلى النفي مما بلي منها ورَثّ ، ونعاود التجربة من جديد بروح وثّابةٍ واثقة من النجاح تساندها ثقةٌ مطلقة في ربها وفي أنها على الخط المستقيم وعلى المحجّة البيضاء .

٢) التصور الجاهلي للحياة :

موجة الصراع القائمة على روح .. التناقض أو التقابل[1] .. التي تسري مسرىً خفياً في جميع مناحي الحياة –كما يريد أن يوهمنا فلاسفة التصور الجاهلي للحياة –بدأت تطغى عارمةً تحمل الضلال والتضليل لتغرق بهما أرضنا الطيبة في العصر الحاضر ، فمدها العارم بدأ يغمر عالمنا الإسلاميّ بعد أن نخَر جسم العالم الغربي وهدَّ كيانه منــذ العهــود الأولى للحضارة اليونانية .. ولا عبرة بما نراه من مظاهر التقدم المادي الذي تعشى له أبصار المضللين منا ..

صارع الإنسان الغربي آلهته المتعددة فصرعَته ، وتلك قمة الروعة والبطولة الزائفة في مأساة وجود الإنسان الغربي.

الإنسان ! ضئيلٌ جدا .. ! ضعيف جدا .. ! جاهل جدا .. ! يتطلع ويتشوق إلى أن يحتل عروش الآلهة على جبل (الأولمب) ويجد من (برو ميثيوس) مساعداً يسرق له الشعلة ويقدمها له هديةً ثمينة ، فتثور ثائرة الإله الأكبر (زيوس) عند اليونان –(جوبتير) عند الرومان– وينتقم من الإله السارق انتقاماً رهيبا .

أما الإنسان فأصبح لا هُوَ بالإله ولا هو بالإنسان ، و لم يتخلَّ عن تعطشه إلى أن يدرك مرتبة الآلهــة .. الآلهــة الشهوانية المتصارعة الخادعة المخدوعة ليزيحها عن عروشها ويحلَّ محلها في متعتها الحسية الدنيئة التي ألهتها عن نفــسها وعن قدسيَّتها

ودخل الإنسان طرفاً آخر في الصراع ، ولكنه في كل حين الطرف الضعيف الخاسر المسحوق ، وهنا يكمن سرُّ بلواه ، وهنا أيضاً يكمن سرُّ وَهْم البطولة عنده ، الوهم الأكبر الذي يعيش فيه الإنسان الغربي بعيداً عــن هــدي الله الواحد في دوامة الصراع .. هذا عن الميثولوجيا اليونانية الرومانية التي أرضت غرور الإنسان الغربي وأرضت غريــزة الصراع البهيمية الكامنة في أعماقه .

وماذا عن الفلسفة اليونانية الوريثة الشرعية لهذه الميثولوجيا .. ؟ أشهرُ مدرسةٍ فلسفية يونانية انتشرت وذاعت هي المدرسة السفسطائية التي انقسمت إلى قسمين أو على الأصح مدرستين متناقضتين في ميدان الفكر النظري الصرف ، وكذلك في الميدان الوحيد للتطبيق المعروف آنذاك ، السياسة . ففريق كان يرى أنَّ (الطبيعة)[٢] صالحة إنْ لم تتدخل يد الحضارة فيها بالتشويه ، وأن الطبيعة جعلت الناس متساوين ، ولكن تفاوتهم ينشأ عن الأنظمة الإنسانية الدخيلــة المصنوعة ، وما القانون إلاّ بدعة من الأقوياء لتكبيل الضعفاء بالأغلال . أما الفريق الثاني فيرى الطبيعة هي أم الشر في كل ما يبدو لنا شراً ، وأنها خلقت الناس غير متساوين ، وما الأخلاق إلاّ خدعة اصطنعتها الأرانب لتسلب الــذئاب حقّها في أن تفترسها ، وهي تؤمن إيماناً راسخاً بأنَّ الحقَّ في يد القوي ما دام قوياً ، فإن فرَّط في قوته أو وجد من هو أقوى منه ضاع حقه وضاعت هيبته .

وإنْ أتينا إلى سقراط ، وحاولنا أن نحدد له وجهةَ نظر محدودة غرقنا في طوفان من المتناقضات التي لن نخرج منها بأي فكرة مستقرة تساعدنا على معرفة سقراط معرفةً حقيقية تشفي الغليل

كان إنساناً فاشلاً في حياته العملية ، ترى فيه زوجته الإنسان الخامل الذي لا يصلح لشيء ، وإذا عرفنا أنه هــو نفسه لم يكن يزعم أنه حكيمٌ يمتلك ناصية الحكمة بل عاشق لها وقد قال : (هناك شيء واحد أعرف به ، ألا وهــو أنني لا أعرف بأي شيء)[٣] زادت حيرتنا والتبس علينا الأمر في معرفة الوجه الحقيقي لهذا المعلم .. لقد اجتمع حوله شباب ارستوقراطي أرضته اللهجة اللاذعة عند المعلم في مهاجمته للديمقراطية .

واجتمع حوله شباب من طبقة الفقراء الأحرار ، أعجبته اللامبالاة الغريبة التي يبديها المعلم نحو فقره المزري .. و لم يكن يدلي بأيةِ وجهة نظرٍ معيّنة محددة .. لقد كان يثير من الأسئلة أكثر مما يقدِّم من الأجوبة .. ومن أصدق ما قيــل في هذا الرجل ما أورده فولتير في إحدى سخرياته اللاذعة على لسان اثنين من أهل أثنيا يتناقشان ، فقال أحــدهما : (هذا هو الملحد الذي يقول بأن هناك إلهاً واحداً فقط)[٤] ، نعم لقد كان كافراً بآلهة (الأولمب) مؤمناً بإله واحــد ، وكان يأمل أن يعيش حياةً أخرى بعد الموت .. ولكنه لم يستطع أن يأتي بنظامٍ خُلقي متين يــساند هــذه العقيــدة

الموحدة ، فاضطر أن يخضع راضياً للنظام الذي يشجبه لمحاكمة ، وأخيراً شرب السمَّ الذي قدَّمه له أعــداؤه ممــسكاً بالكأس بيدٍ لا ترتجف ، رافضاً كل المساعدات ومعْرضاً عن كل محاولات الإنقاذ التي جاء بها تلاميذه المخلصون .

في جمهورية أفلاطون نقرأ أنَّ أحد تلاميذ سقراط ، ضاق ذرْعاً بالتدمير الذي كان يَلقى به سقراط كل تعريــف عن العدالة يقدّمونه إليه . فانفجر مغيظاً محنقاً : (أيــَّة حماقةٍ قد ركبتْك يا سقراط !؟ وأنتم أيها الآخرون ماذا دهاكم لتتراموا على أقدام بعضكم بهذه الطريقة البليدة الغبيَّة !؟ إنني أقول بأنكم إذا أردتم أن تعرفوا ما هي العدالة ، فيتوجب عليك يا سقراط أن تجيب لا أن تسأل ، وأن لا تفاخر بنفسك بدحْضك لأقوال الآخــرين .. وذلــك لأن هنــاك الكثيرين الذين بمقدورهم أن يسألوا ، لكنهم عاجزين عن الإجابة)[٥]

إنّ نظرة عجلى نلقيها على فلسفة أفلاطون تكفي لنخرج بها مقتنعين تمام الاقتناع بأن فكــرة التنــاقض وروح الصراع هي السائدة فيها وهي منها بمثابة القطب من الرحى .. نظرية المثل .. الأساس الذي بنى عليه أفلاطون جميــع آرائه في الله وفي الطبيعة وفي النفس وفي الأخلاق وفي الدولة وفي الفن .. إنها نظرية تقوم على التفريق بــين العقــل والحس .. الأشياء ظلالٌ للمثل .. الواقع صورةٌ مشوهة للنموذج .. المثل رمزٌ للكمال المطلــق وللوجــود الحقيقــي المكتفي بذاته لأنه الحقيقة الكاملة التي لا ينقصها شيء .. فلماذا طبعت هذه الْمُثل صورها على المادة ناقصةً محرَّفة .

لترقيع هذا الخرق جاء أفلاطون بفكرة الإله القائم وراء الْمُثل ووراء المادة معاً ، يصوّر هذه على مثــال تلــك ، وعلى هذا يكون الإله والمادة قد وُجدا منذ الأزل إلى جانب الْمُثل و لم ينشأ منها كما أراد أن يوهمنا ، فإذا علمنا أن إله أفلاطون مما يغض من قيمته وقداسته أن يتولى تدبير شؤون مخلوقاته تدبيراً مباشراً ، فإننا نشعر بأنه إله منفي ، و لم يبق بساحة الصراع سوى المادة والْمُثل .. وفي محاولةٍ يائسة منّا للخروج من هذه المتاهة العقلية نتــساءل : (كيــف كانت المادة قبل أن تصوغها الْمُثل على غرارها ، ولِمَ اعتراها التحريف والتشويه و لم تكن كاملةً كخالقتها ؟[٦] بهذا السؤال نفتح خَرْقاً جديداً أوسع من الأول في (الْمُرقَّعة) الفلسفية التي جاء بها أفلاطون ، ولكنه كعادته يجــد رقعــة يلفِّقها حين يحاول أن يوهمنا أن المادة في وجودها الأول كانت في (شبه عدم) وحين حلَّ الكمال المثــالي في (شــبه العدم) هذا اعتراه النقص وحَاقَ به التشويه ، وهكذا ها نحن من جديد أمام الهوّة السحيقة التي تفصل فصلاً تاماً بــين الحسّ والعقل .. أمام (روح التناقض والتقابل) التي خلقت فكرة الصراع التي سادت الحضارة اليونانية ، ومنــها إلى الحضارة الغربية الحديثة ابنتها الشرعية ..

ويأتي أرسطو ليبني فلسفته على نفس العنصرين الأوليّين اللذين اقتبسهما من أستاذه أفلاطون .. أي أننا لن نخرج من الحلقة المفرغة التي كنا ندور فيها من قبل .

الصورة والوجود .. الصورة هي الحقيقة ، والوجود هو التحقق الذي يحصرها في العالم الواقعي الأرضي الــذي نعيش فيه .. الصورة هي الإدراك الكلي وما الأشياء الجزئية إلاّ التحقيق لهذه الصور الكلية على صعيد الواقع الحي ..

وهكذا يكون أرسطو قد أنزل أفلاطون من عليائه المثالية إلى الواقع اليومي الْمُعاش دون أن يتخلى عن فكرة التناقض التي بنى عليها أول فكرة فلسفية للتطور على أساس الصراع الحادّ بين المتناقضات ، والهدف هــو الارتقــاء العقلــي المنظم .. إلى أين المصير ؟ علمُ ذلك بقي عند أرسطو ، وقد دفن معه في قبره .

من لِبان هذه الحضارة المصابة (بالصرع) رضع الإنسان الغربي ، وصاحبته فكرة الصراع حتى فترة سيادة المسيحية على أوروبا ، أخذ الإنسان الغربي المسيحية ، تبناها بعد أن ذرَّ عليها (ملح الحياة) بالنسبة إليــه (فكــرة الــصراع والتناقض والتقابل) :

نزولُ الإنسان إلى الأرض بعد أن طُرد من الجنّة مذموماً مدحورا . لماذا ؟ لقد أكل من شجرة المعرفة بعد أن شُدِّد عليه النهي في عدم الأكل منها أو حتى الاقتراب إليها ، و لم يكتف بذلك ، بل تطلَّع إلى الأكل من شــجرة الخلــود ليساوي إلهه في بقائه ..

ووُصِمَ الإنسان بوصمة (الخطيئة) القاصمة للظهر ، وتلطَّخ بعارها وشنارها ، ولكن غرور الإنــسان الغــربي لا يسمح له بأن يسعى إلى ربِّه مستغفراً نادماً تائباً منيبا .. كلا ! وكيف يكون ذلك وهو الذي تأصــل فيــه العنــاد والغرور منذ عصورٍ سحيقة في القدم ؟ إنّ غروره وعناده أدَّيا به إلى أن يختلق على ربه أنه هــو الــذي ســعى إلى الصلح ، فقدَّم (ابنه) كبشاً للفداء ، وبِدَمِه المقدّس سيكون الخلاص لبني آدم من عار خطيئتهم .

وتنمو فكرة الصراع ويتسع مداها فتصبح هي نظرية الحياة وأساسها الأول والأخير الذي تستند إليه .. ولا حياة بدونه .. والفضل في ذلك لنبيّ (الصراع) ماركس ومن حَذا حَذْوه ، الذين فرضوا أنفسهم رســلاً يُلقــون كلمــة الصراع إلى الناس .

ماركس .. ! الفيلسوف الهيجلي المبتذل الذي تبنَّى روح (الجدل الهيجلي) ولكنه جعل الحصان يدفع العربة مــن الخلف ، أي أنه جعل (هيجل) الذي كان من قبل يزحف على بطنه حين جاء بنظرية (الديالكتيك) التي استلهمها من روح الصراع والتناقض التي سادت الفكر الغربي طيلة عصوره المختلفة جعله مشي مكبّاً على رأسه ..

لا أريد أن أمضي في بحثي قبل أن ألقي بعض الأضواء على (الديالكتيك الهيجلي) بما يكفي لكــشف جوانــب التهافت فيه . يقول كيرد : (.. ولكن القمة في تقديم الهذر والمحض وفي الربط بين متاهاتٍ من كلمات لا معنى لهــا ولا لزوم ، ربطاً لم نعرف له من قبل مثيلاً سوى في مشافي المجانين ، إنما بلغ ذروته عند هيجل وأمسى أوقح وأشمــل تعميةٍ عرفها البشر أبداً ، تعمية نجمت عنها نتيجة ستبدو أسطورية في أعين الأجيال القادمة ..)[٧]

لقد غرف هيجل من ثقافة اليونان القائمة على فكرة التناقض والصراع ، وهامَ بها حبّاً حتى أنه قال : (إنّ المثقف الألماني يجد نفسه عند ذكر اسم اليونان بين أهله وذويه ..)[٨]

كان يرى أن أوسع العلاقات وأشملها هي علاقة (التناقض أو التقابل) أي (الصراع) وهي مستمدة مـــن فلـــسفة اليونان ، يقول أرسطو : (إنّ المعرفة بالنقيض أو المتقابل هي واحدة) ، والحياة في نشوئها إنما هي تجسِّم التطور المستمر للنقائض الناجم عن الصراع الحادّ القائم فيما بينها ، والذي يؤدي حتماً إلى نوع من التوافق يولد نقيضه .. وهكـــذا في حلقة مفرغة لا تنتهي ..

الصراع هو قانون النمو والخلق ، مبنيٌّ على ما في العالم من متاعب ومشاقّ وضيق ، والتاريخ حركته الدائبة قائمةٌ على (الديالكتيك) ، وهو في الغالب الأعم يتألف من سلسلة من الثورات والصراعات .

وفي أخريات أيامه تخلّى هيجل عن هذه النظرية الأسطورية متعللاً بروح العصر ، ولكن ماركس يأتي ويـــصوغ منها نظرية الصراع الطبقي الذي يؤدي حتماً إلى الاشتراكية المحتومة .

عند هيجل (المطلق) و(روح العصر)[١٠] هما الأساسان اللذان ترتكز عليهما (حركة التـــاريخ) ، أمـــا مـــاركس وأساتذته وتلاميذه فيُحِلّون محلّها (حركات الجماهير) و(القوى الاقتصادية) كأسبابٍ رئيسية لكل تبدّل جـــوهري في (الحياة كلها)

وتثور ثائرة الفيلسوف العجوز ، فيستنكر بشدةٍ التشويه الذي ألحقه بنظريته جماعة ممّـــن سمّـــاهم هـــو بنفـــسه (بالمتطرفين الحالمين)[١١] ، وبموته يخلو الجو للمتطفّلين على نظريته ، ومن خلال تمسكٍ جائعٍ بخطٍ حزبي مفـــروض ، ودفاعٍ ملتوٍ عن نظريات هجينة تُملى من أعلى –من بشرٍ يخطئون وينحرفون– انحرفت وتـــشوّهت (روح العـــصر) وسادت جاهلية حديثة بانهيار النظم الجاهلية التقليدية القائمة على الطغيان الظاهر ، ليحل محلها طغيانٌ حديث قـــائم على إيديولوجية مغرورة تدَّعي الشمول الواسع العميم ، وتتسرب إلى كل ميادين الحياة الخفيـــة والظـــاهرة حاملـــةً التشويه والتحريف .

وتمرُّ السنون .. وتفقد الماركسية الثقة بها كعلم اقتصادي ، ويُثبت الزمن خطل تنبّؤاتها الخرافية ، وتنهزم في ميدان التطبيق العملي على صعيد الواقع الحي ..

ولكن (روح العصر) لا تريد أن تتخلى عن ماركس ، النبي المهزوم ، إنْ فشل في ميدان علم الاقتصاد ، فميـــدان العلم الاجتماعي فسيحٌ أمامه ، وهكذا تحول الصراع الشامل بين الطبقات القديمة في أمم العالم كلـــه ، إلى ثـــورات عنيفة تقوم بها الطبقات الجديدة المسحوقة في دول المستعمرات ، مع أن النظرة العابرة لأي شخص عادي تثبـــت أنّ قادة هذه الطبقات وعدداً كبيراً من جنودها هم من أبناء الطبقات الوسطى التي قد لا تتعارض مصالحها –في بعـــض الأحيان– مع مصالح دول الاستعمار بشقيّه : المسافر والمقنّع .. وبالتالي تثبت أن ما يحرك الإنسانية في مسيرتها المقدسة

أسمى وأنبل مما أوهمتنا به الماركسية سابقاً ، وتحاول أن تلقي في روعنا حالياً ، وهي لا بدّ راجعةٌ إلى سواء السبيل رغم الانحرافات التي لازمتها طويلاً على درب المسيرة الرائعة .

وقد كان ماركس رغم تمجيده للصراع العنيف ومناداته في غالب الأحيان بالعنف الثوري لا يعطف على العصاة والفوضويين والثوريين الذين لا يرون الثورة ناجحة بغير إراقة دماء مناهضيها . إنّ الماركسية -بوجهها القديم- كانت لا ترى مانعاً من العنف بكلّ أشكاله : الحرب ، التخريب ، التعذيب ، الاغتيال ، الإرهاب .. ولكنّ ذلك كله يمكن أن تتخلى عنه إن أمكن العمل بدونه ، وكان دعاتها والمروّجون لها ينادون بالسلام وبالتعايش السلمي قناعاً يغلّف أطماعهم ، وفي سنوات ما بعد الحرب الأخيرة جعلوا من حمامة بكياسو رمزاً وشعاراً لدعايتهم .

أما الماركسية بقناعها التحرري الجديد فقد مجّدت العنف ، وها هو (هربرت ماركوز) يكتب قائلاً : (هناك في المصطلح التاريخي فرقٌ بين العنف الثوري وبين العنف الرجعي ، بين العنف الذي يمارسه المظلومون وبين العنف الذي يمارسه الظالمون ، وكِلا نوعي العنف في المصطلح الأخلاقي غير إنساني وشرّ ، ولكن متى اتّبع التاريخ المقاييس الخلقية ؟)[١٢]

إنّ نظرة الإنسان الغربي للحياة على أنها (صراع بطولي بين الإنسان وبين القوى المجهولة التي تسيطر على العالم (ما هي إلاّ انحرافٌ رهيب تحاول به قوى الشرّ المظلمة التي تودُّ السيطرة حقّاً على العالم أن تنفي عنه فكرة عبوديَّته لله وحده فيتحرر ويحطّم قيوده التي تحول بينه وبين الغاية الأولى والأخيرة من وجوده ، وتُعبِّده لمثله من البشر أو لفكرةٍ ضالّة أو لمادةٍ عمياء .. إلخ

إنّ الغرب -ومن يدور في فلكه- في خضوعه لهذه النظرة الضالّة المضللة أشبه بمن هو تحت تأثير مفعولِ مخدّرٍ قوي سلبه قدرته على التمييز والحكم بين النافع والضّار والصالح والطالح ، ولو دققنا النظر لوجدنا بعض أوجه التقارب بين أسباب انتفاضات الشباب الماركسي الأخيرة في الشرق والغرب وبين أسباب ظهور (الهيبِّية) -رغم الاختلاف الشديد الشاسع بينهما- في عدة أمور :

١- بغضهما المشترك للبورجوازية الرأسمالية .

٢- بغضهما لكل قديم ، وافتتانهما بكل جديد .

٣- اتفاقهما على براءة الإنسان وطهارته وبطولته ، لأنه يقبل العيش في عالم من المتناقضات الحادّة .. عالَمٍ يثير من التساؤلات أكثر مما يقدم من الأجوبة المقنعة .

٤- اتفاقهما على بغض القيود الخلقية المرتكزة على أي أساس يمتّ إلى الدين بصلة .

٥- إيمانهما العميق بروح الصراع بين المتناقضات التي تسود العالم .

وباختصار إنّ النظرة الجاهلية إلى الحياة نبعت من الحضارة اليونانية الوثنية القائمة على فكرة (التناقض أو التقابل)، وقد بدأت -كما رأينا- بالصراع المحتدم بين آلهة (الأولمب) ثم دخل الإنسان طرفاً في الصراع ، ثم استحال هذا الصراع أخيراً إلى مفهومٍ إيديولوجي قائم على روح المنافسة في النظام الليبرالي ، ثم اقتضت (روح العصر) أن يتحول الصراع إلى ثوراتٍ دامية عنيفة تقوم بها الجماهير المسحوقة المغلوبة على أمرها لتستخلص حقّها بالعنف الدموي ممن اغتصبه منها ..

٣) معنى اليمين واليسار في الإسلام :

نظرة الإسلام ترى في الناس فئات ثلاثاً : (١) السابقون ، (٢) أصحاب اليمين ، (٣) أصحاب الشمال .

(١) السابقون هم الطليعة من عباد الله الذين خلصت نيّاتهم وصلحت أعمالهم ، وكانت كل خطوة من خطواتهم عبادةً خالصة مخلصة لربّ العباد ، إنهم الرسل والأنبياء والشهداء والأولياء ، هداة البشرية وقادتها وروادها ، خصّهم الله بالفضل العميم ، وأعدّ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر في جنة النعيم .

(٢) أصحاب اليمين هم الذين آمنوا واهتدوا وساروا على النهج الذي خطّه لهم ربهم في كتبه التي وصلت إليهم عن طريق الرسل ، فقاوموا الضعف البشري الذي كان يركسهم في بعض الأحيان في حمأة الضلال . إنّ رؤيتهم السليمة (للحياة) ترى أنّ وحدة خالقها تجمع شمل عناصرها ومكوناتها في اتحادٍ شامل فعّال لطيف خفي ، لا تراه إلاّ البصائر المفتوحة والعقول المستنيرة التي تؤمن بالغيب لأنها ترى أن إيمانها به لا ينافي ما في طبيعة وجودها من قصور ونقصان يكملها ذلك الإيمان ويمنحها العزاء والصبر والثبات في الملمات ، إنها ترى أنّ (صراعها الحقيقي) مع قوى الشر التي لا ترى الدنيا جميلة إلاّ إذا اصطبغت بصبغة الطغيان وسادت فيها روح الشيطان . إنهم الذين يلقون ربهم وكتابهم بيمينهم ، نفوسهم مطمئنة راضية مرضيَّة تنعم بالأمن والسلام في دار السلام

(٣) أصحاب الشمال هم الذين غاصوا إلى أذقانهم في الوحل .. الطغاة البغاة .. الغالون المغلون الذين رأوا الحقيقة أمامهم ساطعة وهّاجة ، فعشيت عنها أبصارهم وعميت قلوبهم ، وران على عقولهم الجهل والظلام ، ومرضت قلوبهم فزادهم الله مرضاً بما كسبت أيديهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين .. إنهم في الجحيم يُسقَون من الحميم ويستظلون باليحموم ويطعَمون من الزقوم

يرى القارئ الكريم معي هذا المفهوم السمح الذي يحدد به القرآن الكريم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال من البشر يوم القيامة .. يوم الدينونة .. يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى اللهَ بقلبٍ سليم .

ولو رجعنا إلى حديث سيد الأولين والآخرين فسنجد -إلى جانب المفهوم القرآني الأول- مفهوماً آخر لا يناقض الأول ولا ينفيه .. ولكنّ كُلاًّ منهما يوضح جانباً من الجوانب الدينية التي ينبغي للمسلم أن يعلمها ويعمل بها حتى يتقي عذاب ربه وينال رضاه في حياتيه الدنيا والآخرة ، يقول ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « **إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا** » رواه مسلم .

هذا هو المفهوم السمح اللطيف الذي نراه في القرآن والسنة عن معنى اليمين واليسار في الإسلام .. ولكنّ (تطلعاتنا) إلى أن ننهل ونغترف من النظريات الضالّة التي تسود عند غيرنا من الأمم المعتلة ، وشعورَنا بالخذلان أمام الأقوام الذين سبقونا في ميدان العلم المادي .. بعد أن أخذوا بالأسباب التي تؤدي إليه وتخلّينا عنها نحن -جعلانا نستورد منهم كلّ أنظمة الحياة عندهم محاولين في نفس الوقت إيهام أنفسنا أنّ ذلك لا يخالف النظام الكامل الأمثل الذي أخذناه عن الله سبحانه ، فما أحسنَّا تطبيقه ولا العمل به .

حين كانت (روح العصر) تسودها (الفردية) كنا أمناء على تطبيق ذلك النظام الضيِّق على أرض الإسلام ، وحين بَدَّلت (روح العصر) موضتها وتحولت إلى النقيض هلّلنا واستبشرنا وتفاءلنا بالخلاص من الكروب والنكبات التي نزلت بأرض الإسلام وقصمت ظهر المسلمين .

أنظمة الحياة في العالم الإسلاميّ كلها مستوردةٌ من الخارج ، من الغرب الذي يسوده التناقض والصراع كما عرفنا آنفاً ، تخبطات (الصراع التي تعانيها المجتمعات الغربية أُصبنا منها بالعدوى نحن أيضاً في مجتمعاتنا الإسلاميّة ، فاستورد كل مجتمع مسلم النظام الدخيل الذي يراه صالحاً للتطبيق فيه حسْب ما تمليه المصالح والأهواء والثقافة السائدة الرائجة ، وهو في غالب الأحيان مغلوبٌ على أمره خاضع (لروح العصر) .

وقد شاءت (روح العصر) هذه ، ولا مرد لمشيئتها -في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي- أن تستورد أغلب مجتمعات المسلمين النظام الليبرالي ، وأن تَفْصل منه على قَدَرِ الروحَ القومية السائدة في كل مجتمعٍ مسلم ، فإن فتح أحد المسلمين فمه بالاحتجاج على هذه النظرة الضيقة الضالة ، ألقموه أحجار (حرية العقيدة) و(الدين لله والوطن للجميع) و(فصل الدين عن الدولة) ، فإن التقمها وهضمها دخل في دواليب المجتمع كأحد الأركان والدعائم الأساسية ، وإن لم يستسغها ولفظتها معدته ، فما عليه إلاّ أن يغلق فمه وينزوي صامتاً ، وإلاّ فإن حماة الحرية ودعاتها سيكونون له بالمرصاد يحصون عليه حركاته وسكناته بل أنفاسه ، فإن اشتمّوا منه ولو القليل من التذمر أخرسوه بأي وسيلة من الوسائل .. وهكذا انزوى الإسلام في ركن الأحوال الشخصية والعبادات الشكلية ، وأُفرغ من محتواه الحركي الحي الذي يبني الأمة المثلى ، خير أمة أخرجت للناس ، الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتجاهد في سبيله بكل غالٍ ونفيس ، ولا ترضى بالدنيَّة في دينها ودنياها ، فتدنت هذه الأمة إلى الدرك

الأسفل من الانحطاط ، إلى الحضيض الذي ليس بعده حضيض ، وأصابها الله بالنكبة القاصمة ، سلّط عليهـــا أحقـــر عباده الذين ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ، يسومونهم الخسف ضروباً ويذيقونهم الذلّ ألوانا .

وبدأت الأمة تدرك الكارثة التي حاقت بها ، وأخذت تتطلع إلى الخلاص .. و لم تجده لشقوتها في كتاب الله وسنة رسوله ، لقد اتجهت إلى اليسار ، مستلهمةً (روح العصر) ومتأثرة بالموجة العارمة التي تعمُّ العـــالم المنكـــوب بهـــذه الظاهرة اليسارية التي تسللت في غفلة من الحراس الأمناء لهذه الأمة ، أو على الأصح في وقت كانوا فيه أعجـــز مـــن مقاومتها لأنّ كلّ قوى الشرّ قد تكالبت عليهم محاولةً سحقهم مستهدفةً القضاء المبرم عليهم ، وقوى الشر والـــدمار هذه تتمثل في المخدوعين من قلب أمة الإسلام ومن بين أبنائها أنفسهم ، اقتبسوا هذه الظاهرة الغريبة عـــن طريـــق التقليد الأعمى دون تفكير أو تمحيص ، يساعدون بذلك الأعداء التقليديين لهذه الأمة –عن قصدٍ أو غـــير قـــصد– الاستعمار الغربي الإمبريالي ، أو الشيوعي الأحمر ،وهؤلاء كلهم أدواتٌ مسخرة في يد الصهيونية العالمية التي تستهدف التوسع الاستيطاني في قلب المجتمع المسلم كورم خبيث يسمم جسم الأمة الإسلاميّة ويقتل طاقاتها ويهدم مقوماتهـــا ، وما ذلك إلاّ لتحرم العالم خير أمة فيه .. الأمة التي لا تقوم على العرق ولا التسلط .. الأمة التي اختارها الله لتحـــرر الإنسان من الطواغيت سواءً كانوا بشراً أو مبادئ هدامة .

وبتبني المسلمين للظاهرة اليسارية عمّت المصائب وتوالت النكبات وتفاقم الخطب .. فمتى يرعـــوي المتنطّعـــون ويتجهون الوجهة السليمة ؟

إنّ الله أكرم المسلمين تكريماً عظيماً بأن حمّلهم مسؤولية الشهادة على الناس وجعلَ الرسول ﷺ شهيداً علـــيهم ، وهو عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى لكل إنسان يودّ أن يعيش حياته على أساس من الحق والعدل ، مستهدفاً الخير العام لكلّ الناس وهدايتهم إلى الطريق المستقيم ، وحين تمثَّلنا هذا النهج القويم في جميع أمورنا الدينية والدنيوية كنَّـــا الأمة الأوسط ، خير أمةٍ أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، لا غاية لها من وراء ذلك إلاّ جل النفع للبشر ، كل البشر ، ودفع الضرر عنهم .

وشهادة الرسول على هذه الأمة تتمثل في أنّ كل مؤمنٍ حين يمارس شؤون حياته تكون كل حركة من حركاتـــه وكل سكنة من سكناته اقتداءً برسول الله ﷺ ، المنبع الثرّ لكلّ سلوكٍ حسن وعمل صالح . وشهادة الأمة الإســـلاميّة على الناس تأتي من أنها الأمة التي تقيس كل الأمم أنظمتها وأعرافها وتقاليدها عليها ، فيتبين لها فيها وجه الانحـــراف والضلال ، فتأخذ نفسها بالاستقامة والتقويم ، ولكنّ العكس هو ما نراه ، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله ، وإنا لله وإنّـــا إليه راجعون

٤) معنى اليمين واليسار في الفكر الجاهلي :

كنت أتحدث إلى أحد (اليساريين) والحديث ذو شجون ، وتطرّق بنا الحديث إلى الكلام عن صـــدر الإســـلام ، وبالضبط إلى عهد أمير المؤمنين عمر ﷺ ، فإذا بالأستاذ يتكلم عن هذا الإنسان العظيم كلاماً أقل ما يوصف به أنه لا يمكن أن يصدر عن مثقّف يحترم رأيه ، لقد (وصمه) وبكل بساطة وبرود بأنه (يميني) ، لم يُثرْني الوصف نفسه بقـــدر ما أثارتني اللهجة التي نطق بها .. وأرغمت نفسي على أن (أحاربه بسلاحه وأقتله بسمّه كما يقولون) فقلت له : (ألا تعلم أن عمر ﷺ قد سبق إلى كثيرٍ من الإصلاحات والإجراءات التي تعدّ بالقياس إلى عصرنا هذا متطرفةً في (ثوريتها ويساريتها) ؟ ولم يكتف بذلك بل إنه في أواخر حياته كان يأسف كثيراً على أنه لم يأخذ من فضول أموال الأغنيـــاء ليردَّها على الفقراء .. ؟)

ودفعني هذا الحديث إلى الاستزادة من المطالعة في كتب (اليساريين) بحثاً عن المعنى المحدد الـــذي يناســـبه لفـــظ (اليمين) أو (اليسار) ، وإخلاصاً للحق أقول إنني ما وجدت ما يقنعني ولا ما يشفي غلّتي .

فكلمة اليسار أطلقت –أول ما أطلقت– على حزب المعارضين في البرلمانات الفرنسية الذي كان أعضاؤه يقعدون على يسار منصّة الرئاسة ، فإن أخذنا بهذا التعريف فإننا سنقع في نوع من الارتباك بين مفهوم (المعارضة) ومفهـــوم (اليسار) ، في حين أن المعنى اليساري مستقرٌ نوعاً ما ، بينما نجد أن معنى المعارضة يتأرجح تبعاً لوجود الحزب الذي تنتمي إليه في الحكم أو خارجه .

فإذا حاولنا أن نلقي نظرة خاطفة على الجماعات المتعددة اليسارية عبر تاريخها القصير –في بلاد الغرب مهْـــدها الأول طبعاً– بحثاً عن خطّ الوحدة الذي يجمعها ، نجد أنه من الأجدر بالباحث أن يحصي أوجه الخلاف والاختلاف، من أن يحاول التنقيب عن وجه للاتحاد ، فهو لن يتمكن حتى من اختلاقه ، فقد ظلّت الـــشعارات الـــتي تطرحهـــا الأحزاب اليسارية تتغير من حين لآخر ، أما برامج تنفيذ تلك الشعارات هي لم تعرف الثبات أبداً ، فإن أبدى أحـــدٌ مكابرةً أو عناداً فإني أناشده الحقّ أن يوضح لي –لوجه الحقّ– نوع الوحدة بين حزب يساري يؤمن بالاتجاه المتمهـــل الوئيد –عن طريق المؤسسات الدستورية القائمة– نحو تحقيق الاشتراكية ، وبين حزبٍ لا يرى تحقيق الاشـــتراكية إلاّ بالطفرة والثورة .. ! بين حزب يساريٍ ناضل في الماضي من أجل حكومة (برلمانية ديمقراطية) ، وبين حزب يساري آخر يناضل الآن من أجل خلْق حكومةٍ (ديمقراطية شعبية)[١٤] .

في البيان الشيوعي نادى (ماركس) ورفيقه (انجلز) عمّال العالم بأن يتّحدوا .. وفي جميـــع مـــؤتمرات الأحـــزاب اليسارية نودي بضرورة الوحدة والتكتل ، ولكن ماذا نرى ؟ نرى الوحدة أملاً خرافياً سوّد آلاف الصفحات وخَطّته آلاف الأقلام ولهجت به آلاف الألسن وخفقت به آلاف القلوب ، ولم يتحقق مرةً واحدة على صعيد الواقع ، نرى اليسار الذي يدعو إلى الوحدة مبعثراً ، فوضوياً ، مقعّداً ، تعددت به الأسباب وموته واحد .

في البلد الواحد نرى الجماعات اليسارية تتنافس فيما بينها للاستحواذ على الحكم ، وتحارب بعــضها طمعــاً في الاستئثار بمغانم السلطة ، وتختلف على شكل نظام الحكم الذي يصلح للبلاد ، وتتنازع على الوسائل والــسبل الــتي يراها كل منها الأصلح لتحقيق الحكومة المثلى في البلاد ، فإن وقع ائتلاف –وقلّما يقع إلاّ إذا كان اليسار مبعداً عن الحكم– وقفز جناح من اليسار إلى الحكم خاصمته الأجنحة الأخرى ، لأنها لا تتفق معه علــى الإصــلاحات الــتي اتخذها ، لأنه ترى أنها أقصر مدىً مما كان يمكن أن يحققه ، ومما تدعو إليه شعاراته

(يتبع)

---

(١) ويل ديورانت (قصة الفلسفة) ص ٥٠٤

(٢) نفس المصدر السابق ص ٥٤

(٣) نفس المصدر ص ٥٩

(٤) نفس المصدر ص ٦١ الهامش

(٥) نفس المصدر ص ٧٤

(٦) (قصة الفلسفة اليونانية) ج١ ، أحمد أمين وزكي نجيب محمود ص ٢١٥

(٧) ويل ديورانت (قصة الفلسفة) ص ٤٩٩

(٨) نفس المصدر ص ٥٠٠

(٩) نفس المصدر ص ٥٠٥

(١٠) نفس المصدر ص ٥٠٨

(١١) نفس المصدر ص ٥١٠

(١٢) نقلاً عن كتاب (اليسار الجديد) منشورات (دار النهار) بيروت

(١٣) نفس المرجع السابق (عن المقدمة)

(١٤) يمكن لمن أراد التوسع في دراسة هذه الفكرة أن يرجع إلى الفصل الأول من الكتاب القيّم الذي ألفه (ريمون آرون) تحــت عنوان (أفيون المثقفين) وهو أستاذ (العلوم الاجتماعية في المدنيّة المعاصرة) في الكوليج دو فرانس